# تحليل النقد التّوثيقي لقضية الإنتحال في كتاب طبقات الشعراء

**الدكتور عبدالله حسيني**
**أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة فرهنگيان طهران، إيران**
dr.hosseinyiran@gmail.com

# An Analysis of Documentary Criticism of Plagiarism in Tabaqat al-Shuaraa

Dr. Abdoallah Hosseini
Assistant Professor , Department of Arabic Language and Literature ,
Farhangian University , Tenran , Iran

**الملخص:-**

يهدف هذا المقال إلى تقديم قراءة نقدية تحليلية في كتاب "طبقات الشعراء" لابن سلاّم الجمحيّ من خلال إثارة نقطتين اثنتين تخصّ الأولى أبرز ما جاء من نقد توثيقي-تاريخي في هذا الكتاب عن الشعر الدخيل و الموضوع في الأشعار الجاهلية و من ثمّ تحليل ما يتناوله بالنقد و المناقشة؛ وتهمّ الثانية معالجة المنهج النقدي ومعاييره الفنية، وتمّ التركيز فيها على المقاييس النقدية التي تمّ الاستناد إليها في تصنيف الطبقات، والأسس التي اعتُمدت في تحديد الطبقة وشعرائها. و من أهمّ النتائج التي توصل إليها هذا المقال إنّ ابن سلّام لقد وضع بتحليله التوثيقي لقضية الإنتحال حدّا للتشكيك في الشعر العربي و حقّق بذلك تحليلات هامّة في هذه الظاهرة فتمثّلت هذه التحليلات في إخضاع الشعر العربي لموازين هامة نقدية أكثر منها عفوية تاريخية.

**الكلمات المفتاحية:** محمد بن سلّام، الإنتحال، الشعر الجاهلي، طبقات الشعراء، النقد التوثيقي.

**Abstract:-**

This article aims to provide a critical and analytical reading to the “Tabaqat al-Shuara” book by Ibn Sallam al-Jumahi by raising two points, the first is concerned with the most prominent documentary-historical criticism that came in this book on extraneous poetry and the topic in pre-Islamic poetry, and then analyzing what it attends to with criticism and discussion. The second concerns the treatment of the critical approach and its technical criteria, and it focused on the critical measures that were relied upon in classifying classes, and the foundations that were used in determining the class and its poets. And one of the most important findings of this article is that Ibn Sallam has put an end to suspicion of Arabic poetry, with his documentary analysis of the issue of plagiarism, and accomplished important analyzes of this phenomenon, so these analyzes consisted in subjecting Arabic poetry to important monetary balances rather than spontaneous history.

**Key words:** Muhammad bin Sallam, plagiarism, pre-Islamic poetry, classes of poets, documentary criticism.

## ١ـ المقدّمة:

محمّد بن سلّام الجمحي من علماء أواخر القرن الثاني من الهجرة و أوائل الثالث، أحد الإخباريين والرواة، نحوي و لغوي و هو يعدّ أحد كبار نقدة الشعر، الّف كتابا أوكتابين في طبقات الشعراء. مات سنة ٢٣١ هـ. (الزركلي،٢٠٠٧م: ٦ /١٤٦.ابن نديم،١٣٤٣هـ ق: ١١٣.الصفدي،١٩٦٢: ٣ /١١٤. احسان عباس، ١٩٧١ م: ٧٨)

يعتبر النقد التوثيقي الذي استفاد منه ابن سلّام أحد المباحث الهامّة التي برزت في الكتاب، وحينما تطرّق لنقد الشعر الجاهلي و وصوله إلى العصر الإسلامي عن طريق الرواية الشفهية اقتضي ذلك إلى التشكيك في صحّة قسم كبير منه، و لذلك أراد ابن سلّام أن يوثق الأشعار الجاهلية لتبرز أحكامه النقدية على أساس من الصحّة، فبادر بالتوثيق وتعرّض لقضية الرواية وناقش قضية الإنتحال، وحقا استطاع بعد هذه الدراسة أن يأتي بنتيجة هامّة لتمييز صحيح الشعر من رديئه، وبذلك كانت دراسة قضية الرواية والإنتحال عند ابن سلّام دراسة نقدية توثيقية تدعمها ادلّة عقلية نقلية تبين ظاهرة التشكيك في الأدب العربي. لست في هذا المقال بصدد عرض قضية الإنتحال من حيث هي، بل المهمّ أن أبين ومن ثمّ أحلّل موقف ابن سلّام لأهمّيته في أمور هي:

١. إنّه أوّل من تطرّق إلى هذه القضية.
٢. قربه من عصر الإنتحال و الوضع.
٣. قيمة الأدلّه العقلية و النقلية التي عرضها.

### ١-١-أسئلة البحث:

١. كيف ينظر كتاب طبقات الشعراء إلى قضية الإنتحال في الشعر الجاهلي؟
٢. كيف برهن ابن سلّام توثيقيا على وجود الإنتحال في الشعر الجاهلي؟
٣. هل استطاع ابن سلّام أن يثبت قضية الإنتحال في الشعر الجاهلي من الرؤية التوثيقية؟

### ١-٢ ضرورة البحث:

قد تبدو العودة إلى كتاب طبقات الشعراء و دراسته من جديد مستغربة بعد تلك

الدراسات العديدة التي تعرّضت له و لكنّ الأكثر غرابة حقّا أن لا نجد دراسة متأنية تحاول استنكاه حقيقة الكتاب و الوقوف على ماهية ضوابط ابن سلّام النقدية التي جاءت في نهاية المطاف أبلغ تصوير لحالة النقد الأدبي في صورتها الأولى المنظمة، إذن ابن سلّام ومقامه كصاحب اوّل اثر نقدي منهجي الّفه العرب في النقد و الأدب، و اوّل من نصّ على الإستقلال النقد الأدبي و تطرّق بقضية الإنتحال في الشعر الجاهلي بحقّه أن يقّدم إلى محكمة نقدية علمية شاملة تسلط الضوء على دوره في تاريخ النقد الأدبي خاصّة في قضية الإنتحال.

### ١-٣ منهج البحث:

و المقال من حيث المنهج فقد طبّق المنهج التحليلي التطبيقي و المنهج الإستقرائي من خلال تسليط الضوء إلى آراء ابن سلّام التي بينها في قضية الإنتحال.

### ١-٤ خلفية البحث:

أمّا بالنسبة إلى الدراسات السابقة لهذا الموضوع فلا بدّ أن نذكر انّه لم يحظ بدراسة نقدية مستقلة فيها تستوعب جوانب مختلفة من آراء ابن سلّام حول قضية الإنتحال من الرؤية التاريخية التوثيقية، انّما نجد مباحث مبعثرّة في كتب تاريخ النقد الأدبي لا تتجاوز صفحة أو صفحات قليلة من المعاصرين سوي الكتابين التاليين:

- ابن سلّام و طبقات الشعرا للدكتور منير سلطان، منشاة معارف بالإسكندري، الطبعة الثانية ١٩٨٦ م.
- قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلّام، لمحمود محمد شاكر، مطبعة المدني القاهرة ١٤١٨ هـ.

## ٢ - أصل البحث:

الوضع والنحل والإنتحال كلّها قضايا أدبية عامة، لا تقتصر على أمة دون غيرها من الأمم، ولا يختصّ بها جيل من الناس دون غيره من الأجيال، فقد عرفها العرب كما عرفتها الأمم الأخرى التي كان لها نتاج أدبي؛ وعرفها العصر الجاهلي كما عرفها العصر الأموي والعصر العباسي، بل كما لا يزال يعرفها عصرنا الحاضر الذي نعيش فيه. ولقد فطن لذلك بعض أساتذة ابن سلّام كالأصمعي وأبي عبيدة و أبي عمرو بن العلاء، يقول الأصمعي:

"يقال إنّ كثيرا من شعر امرئ القيس لصعاليك كانوا معه". (المرزباني، ١٩٦١: ٣٢)

ولم يكن الوضع أو النحل أوالإنتحال مقصوراً على الشعر وحده، بل لقد شمل كل ما يمتّ إلى الأدب العام بسبب كالنسب والأخبار منذ الجاهلية نفسها. فإذا ما انتقلنا بعد ذلك إلى تخصيص الحديث في الشعر وحده، وجدنا أنّ الشعر الجاهلي كان عرضة منذ الجاهلية نفسها وسنوات الإسلام الأولى للوضع والنحل والانتحال، والأمثلة التي بين أيدينا قليلة ولكن فيها مقنعاً إذ أنّها تدلّ دلالة واضحة على أنّ هذه الظواهر الأدبية كانت معروفة شائعة منذ أبعد ما نعرف من عصور الشعر العربي. إنّ الحديث عن قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ليس جديد عهد و انّما يرجع إلى عصور قديمة مضت و كانت عبارة عن بحوث صغيرة سريعة عابرة و لكن اوّل من أشار إلى الشك في صحّة الشعر الجاهلي هو الناقد البصري الشهير محمّد بن سلّام الجمحي و ذلك في مقدمة كتابه طبقات فحول الشعراء، و اهتمّ كتابه باهتمام كثير من النقّاد و الدارسين و أكاد أزعم أنه لا يخلو كتاب في النقد أو الأدب من ذكر ابن سلّام و طبقاته، فهو اوّل من بحث في هذه المسألة بحثا منظما، و قد ابتدأ حديثه بالتنبيه إلى حدوث تزييف في الشعر الجاهلي على نطاق واسع ثمّ حاول بعد ذلك أن يحدّد عوامل الوضع في الشعر، و بذلك فابن سلّام أوّل من أشار إلى قضية الإنتحال في الشعر الجاهلي. و الكلام في الشعر الموضوع كان طبيعيا في عصر ابن سلّام، في عصر كادت تنتهي فيه الرواية، و أقبل فيه العلماء على تدوين الشعر ليسلموه إلى الأجيال القادمة.

يعتبر النقد التوثيقي الذي استفاد منه ابن سلّام أحد المناهج الهامّة التي ظهرت في كتاب طبقات الشعراء، فتطرّق ابن سلّام إلى التوثيق، فتعرّض لقضية الرواية و ناقش قضية الإنتحال.افتتح كتابه بمقدمة فريدة تعكس أهمية الكتاب و غايته و منهجه و تحتوي على عدّة قضايا نقدية و أدبية من أبرزها قضية انتحال الشعر، أما هدفه الرئيسي في الكتاب تتجلي في تخليص الشعر الجاهلي من الشوايب و ما أضيف عليه ثم التنبّه على مكانة كلّ شاعر و منزلته بين شعراء عصره، و لكي يحقّق ابن سلّام هذه الغاية نراه قد استعرض معظم المقاييس النقدية التي كانت سائدة في عصره. يعتبر كتاب الطبقات من أقدم الدراسات – إن لم يكن أقدمها جميعا – التي ألّفت في النقد، و نهج على منهج معين واضح و يبدأ بمقدمة طويلة يعرض فيها لمقاييس النقد المختلفة في عصره كما يبين اتجاهه في نقد الشعر و في تصنيف كتابه و ترتيب طبقاته و من هنا اكتسب هذا الكتاب أهميته. اُختلف في التسمية

الصحيحة للكتاب بين أن يكون طبقات الشعراء أو طبقات فحول الشعراء (حنّا الفاخوري، بدون تاريخ / ٦٤٧)، و قد اكد التسمية الأخيرة و دافع عنها محمود محمد شاكر و نشر الكتاب تحت عنوان طبقات فحول الشعراء. هناك من يعتقد انّ اسم الكتاب طبقات الشعراء و ليس طبقات فحول الشعراء. (البغدادي، ١٩٣١هـ: ٥ /٣٢٧. ابن رشيق، ١٩٥٥ م: ١ /٥٤. الانباري،١٢٩٦: ٢١٦. الحموي،١٩٣٦: ٢٠٤/١٨. العسقلاني،١٣٢٩: ٣ /٦. السيوطي، ١٢٨٥هـ: ٢ / ٤٥) لكن البعض الآخر يعتقد انّ كتاب طبقات الشعراء كتابان، أحدهما طبقات فحول الشعراء الجاهليين و الآخر طبقات فحول الشعراء الإسلاميين، (جورجي زيدان،١٩٨٢: ١٢٣/٢. بدوي احمد طبانة، ١٩٦٠م: ١٢٦)

وأولي الأفكار التي أشار إليها محمّد بن سلام فكرة الشعر الموضوع الذي ينسب إلى الجاهليين و ليس للجاهليين و تلك الفكرة تقلقه و تزعجه و تحتلّ الرتبة الأولى ممّا يتّصل بالنقد الأدبي في مقدمة كتابه، و استدل على ذلك بدليلين:

أولهما، عدم وجود قرينة على إنتماء بعض ما يتداوله الرواة مكتوبا إلى العصر الجاهلي، فهو لم يأت مرويا عن أهل البادية، و لم يعرض على علماء العربية الثقات. و ثانيهما، يعود إلى ضعف مستوى ذلك الشعر. رأى ابن سلاّم ببصيرة الناقد أن ثمة شعراً موضوعا وضعه بعض الرواة ونسبوه إلى بعض الشعراء، وهو خال من أي جمالية من جماليات الشعر؛ يقول: " شعر ضعيف مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجّة في عربية، ولا أدب يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائح، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف". (الجمحيّ ابن سلّام، ١٩٧٤ م: ٤) ومن هولاء الرواة نجده ينتقد محمد بن إسحاق ثمّ يرفض ما يروي من الأشعار، مبينا الأدلة التي تستدعي رفضه وهي:

١- **أدلّة قرآنية:** يقدّم ابن سلّام ادلّة نقلية توكد ضياع ما يمكن أن يكون للأقوام السابقة من أشعار و يأتي بعدد من الآيات القرانية التي تصوّر ذهاب كلّ ما يتّصل بهذه الأقوام، بعد أن عرض لقضية الشعر الموضوع أخذ مثالا بعينه و حاول تنفيده فشرع يهاجم محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية قائلا: "وكان ممّن أفسد الشعر وهجّنه وحمل كل غُثَاء منه محمد بن إسحاق بن يسار مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف، وكان من علماء الناس بالسِّيَر فكتب في السِّيَر أشعار الرجال الذين لم

يقولوا شعرا قط وأشعار النساء، فضلا عن الرجال، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود فكتب لهم أشعارا كثيرة وليس بشعر إنما هو كلامٌ مؤلَّفٌ معقودٌ بقوافٍ،" و يمضي ابن سلاّم في اتّهام ابن إسحاق بالغفلة فيقول: " أفلا يرجع إلى نفسه فيقول: من حمل هذا الشعر؟ ومن أدّاه منذ آلاف من السنين؟ والله تبارك تعالى يقول: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي لا بقية لهم، وقال أيضا: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى﴾، وقال في عاد: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، وقال: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ (المصدر نفسه: ٧). ونعكس المسألة فنبدأ بآخر ما قاله ابن سلّام في هذه الفقرة، وهو أنّ عادا وثمود قد بادتا على بَكْرَة أبيهما فلم يبق من أيّ منها باقية، وعلى هذا فمن غير المعقول أن يكون قد بلغنا من أشعارهما شيء، وإلّا فمن أدّى إلينا ذلك الشعر، وقد استؤصلوا أجمعين فلم يكن هناك راوٍ يروى شعرا. إذن ما نُسب من الأشعار العربية إلى تلك الأقوام محض وهمٍ لا يصدّق.

٢- **أدلّة تاريخية:** و تتمثّل في رجوع ابن سلّام إلى تاريخ اللغة العربية و اختلاف لهجات العرب و كذلك إلى تاريخ الشعر العربي إذ يعتقد:

- انّ اللغة العربية لم تكن موجودا في عهد عاد و ثمود و لايصحّ في العقول أن يوجد شعر بلغة لم توجد بعد، فاوّل من تكلّم بالعربية هو إسماعيل بن إبراهيم و إسماعيل كان بعد عاد و ثمود.
- انّ الشعر الموضوع المنحول الذي نسبه الرواة إلى قوم عاد لا يمثّل لغة عاد فعاد من اليمن و لسان اليمانيين يختلف عن هذا اللسان العربي و يبرهن ابن سلّام بقول أبي عمرو بن العلاء " العرب كلّها ولد اسماعيل الّا حمير و بقايا جرهم ".
- انّ التاريخ الأدب العربي لا يذهب بالشعر الجاهلي إلى ذلك العصر الموغل في القدم بل انّ ازدهار و تقدّم الشعر لم يكن قبل الإسلام بكثير " و لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلّا الأبيات يقولها الرجل في حاجته و انّما قصّدت القصائد و طوّل الشعر في عهد عبدالمطلب و هاشم بن عبد مناف و ذلك يدلّ على إسقاط

شعر عاد و ثمود و حمير و تبع ". (المصدر نفسه: ٧ و ٨) تبدو آراء ابن سلام في هذا الشأن على قدر من الإضطراب، فبعد أن بين انّ تقصيد الشعر انّما كان على عهد عبد المطلب و هاشم بن عبد مناف بما أغدقا على الشعراء المدّاحين عاد فقدّم تصوّرا مختلفا لهذا الأمر إذ جعل الرثاء الذي ينشأ عن الوقائع و الثأرات والدماء مبعثا لتقصيد القصيد و إطالة الشعر. (العاكوب،١٤٢١هـ: ١١٣- ١١٤. منيف موسى ١٤٠٥هـ: ٤٦) و رغم موافقة الكثير من المتقدّمين لرأي ابن سلام هذا (ابن قتبة، ١٩٧٧م: ٣٠٣/١. المرزباني،٩٤: ١٩٦١) إلّا أنّ محمود شاكر محقّق كتاب الطبقات يقول: " هكذا يرى ابن سلّام و غيره من المتقدّمين، و هو عندي باطل فالشّعر أقدم ممّا يزعم و طويله أعتق ممّا يتوهّم. (الجمحي ابن سلام،١٩٧٤: ٢٦/١) ما يُمكن قوله في هذا السياق أنّ تحديد أولية الشعر العربي بشكل دقيق أمر يصعب البتّ فيه، غير أن ما يُمكن تأكيده أن بداية الشعر الجاهلي ضاربة في القدم، وهذه الفكرة تداولها الشعراء المتأخرون في الزمن أنفسهم؛ فامرؤ القيس- مثلا - أكّد أن بداية الشعر سابقة على زمنه، وأنّه سار في طريق معبّد مسلوك (المصدر نفسه: ٣٩/١) ما يثبت أن الشّعر قبله كانت له تقاليده المرعيّة وأساليبه المعروفة وشكله المحدّد. ولعلّ الذي رام إليه ابن سلاّم من البحث في أولية الشعر ما وصل إلينا من شعر بالرواية الراجحة الموثقة، وليست الأولية المطلقة، أي أولية الموجود بالفعل الذي تناقله الرواة واتّفق عليه أهل العلم والدراية وأجمعوا على صحته.

ثم يتطرّق ابن سلّام إلى الأسباب التي جعلت العرب تصنع الشعر و تنسبه لأناس لم يقولوه فيري أنّ الإنتحال يرجع إلى:

**الأولى:** العصبية القبلية في العصر الإسلامي:

إستقلّ بعض القبائل شعر شعرائهم و ما ذهب من ذكر وقائعهم وحوادثهم، وكان قوم قلّت وقائعهم و أشعارهم و أرادوا أن ينسبوا إليهم الوقائع و الأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثمّ كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت، فالقبائل التي كانت تتزيد في أشعارها و تضيف إلى أشعار الشعراء ما لم يقولوه، و قد أشار ابن سلّام مرارا و كرارا إلى ما وضعت قريش في أشعار الشعراء، فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم، يقول: "ويذكر أنّ

من أبناء الشعراء و أحفادهم من كان يقوم بذلك، مثل داود بن متمّم بن نُويرة فقد إستنشده أبو عبيدة شعر أبيه متمّم و لاحظ أنّه لّما نفد شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويضعها، وإذا كلام دون كلام متمّم، و إذا هو يحتذي على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمّم و الوقائع التي شهدها، فلمّا توالي ذلك علم أبو عبيدة و من كانوا معه أنّه يفتعله ". (الجمحي، ابن سلّام، ١٩٧٤ م: ٤٦و٤٧) امّا دلائل ضياع ذلك الشعر فقد وضّحها ابن سلّام في قوله: " فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر و روايته. فلمّا كثر الإسلام و جائت الفتوح و اطمأنت العرب بالأمصار وراجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن و لا كتاب مكتوب، و ألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقلّ ذلك، و ذهب عليهم منه كثير ".(المصدر نفسه: ٤٦ و ٤٧)

يحلّل ناصرالدين الأسد بالنقد و المناقشة كلام ابن سلّام هذا في ثلاثة أسطر: آخرها حق، موسطها باطل، و اوّلها يحتاج إلى فصل بيان يوضحه. أمّا الحق الذي لا مرية فيه فقوله: "فحفظوا اقلّ ذلك و ذهب عليهم منه كثير". و امّا الباطل الذي لم نعد نشك في بطلانه و فساده فهذا هو التعميم الواسع في قوله: " فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن و لا كتاب مكتوب ". ثمّ يذكر ثلاثة أمثلة من كتاب ابن سلّام تنقض هذا القول، لكن يكفي أن نورد مثالا واحدا فقط:

"فقد عاب ابن سلّام بعض علماء قبله - أي علماءالقرن الأوّل الهجري- باكتفائهم بالأخذ عن الدواوين المدوّنة و الكتب المكتوبة فنبزهم بانّهم صحفيون و ذلك قوله عن الشعر قديم: " و قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه عن أهل البادية و لم يعرضوه على العلماء و ليس لأحد إذا أجمع أهل العلم و الرواية الصحيحة على إبطال شيء منه أن يقبل من صحفية و لا يروي عن صحفي". و قد قال عقب قوله السابق الذي أنكر فبه هذه المدوّنات: "و قد كان عند النعمان بن منذر منه ديوان فيه أشعار الفحول و ما مدح هو و أهل بيته به صار ذلك إلى بني مروان أو صار منه" (الأسد، ناصرالدين، ١٩٨٨: ١٩٨). أمّا الشطر الثالث الذي يحتاج إلى فضل بيان يوضحه فهو قوله: "فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو الفارس والروم ولهت عن الشعر وروايته فلمّا كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر والّفوا

ذلك و قد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل". لابدّ لنا أن نتساءل هنا:

١. أ حقّ انّ العرب قد لهوا عن رواية الشعر في هذه الفترة من حياتهم فغفلوا عنه ونسوا ذكره وأضربوا عن روايته؟

٢. و اذا كان كذلك فكم من السنين أو من القرون بلغت هذه الفترة؟

٣. ثم أ من الحقّ انّهم حين راجعوا روايته -اذا سلّمنا بانقطاعهم عنها - الّفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل؟

و للإجابة عن هذه الأسئلة لابدّ لنا من استقراء تاريخي نتبع فيها حياة الرواية عند القدامى:

أ- فاذا ما بدأنا بعهد بني أمية وجدنا انّ بعض القوم آنذاك كان يرى العلماء العارفين بالشّعر الجاهلي قد ماتوا و نحن نحسب انّ هذا الضرب من الكلام موجود في كلّ عصر و انّه لا يصحّ أن يحمل محملا لفظيا قاطعا و انّما هو ضرب من التحسّر على الماضي و تمجيد القدماء و الإقرار بضعف الحاضر و عجزه إذا ما قيس بالقديم السابق عليه، مثلا: حين سئل عمرو بن العلاء عن قول الشاعر:

**زعموا انّ كل من العير  موال لنا و انا الولاء**

قال: مات الذين يعرفون هذا.

انّ الحجّاج بن يوسف الثقفي قال على المنبر: " ذهب قوم يعرفون شعر أمية... " و بين الحجّاج وأمية بن أبي الصلت نحو من ثمانين سنة.

ب - انّ ابن سلّام دقيق في ألفاظه و يحاول تحديد المعني باستخدام الألفاظ المؤدّية له بوضوح وقد استعمل فعل (تشاغل) ولم يقل (امتنع) العرب عن رواية الشعر وقال (لهت) عن الشعر وروايته ولم يقل (حرّموه) على أنفسهم.

ج - ولّما استقرّت الحال بهم لم يرجعوا إلى ديوان و لا إلى كتاب مدوّن، لماذا:

- لانّ الدواوين كانت موجودة و الكتب كانت موجودة و لكنّها غير موثوق بها.
- دواوين وكتب محرّفة و مصحّفة فالأفضل الرجوع إلى الرواة والأعراب والقرّاء، وأين هم هل هم فنوا كلّهم؟ لا، هلك منهم بالقتل والموت من هلك فحفظوا أقلّ

ذلك و ذهب عنهم منه كثير. (المصدر نفسه: ٢٠٠)

د - هذه القضية بهذا الشكل تخدم قضية ناصرالدين الأسد، لانّه يحاول إثبات انّ التدوين موجود وابن سلّام يقول له: نعم كان موجودا، والرواية أيضا كانت موجودة و لكنّ العرب لم تكن تثق بالمدوّنات، ذلك للتصحيف الذي هيمن عليها و لشدّة ثقتهم بالذاكرة القوية. والمسألة لها مثيل و هو تدوين المصحف الشريف يقول ابن أثير: " نزّل القرآن منجّما في بضع و عشرين سنة فلمّا انتقل الرسول -ص- إلى جوار ربّه و قامت حروب الردّة و قُتل فيها أكثر القرّاء من الصحابة و خاصّة في يوم اليمامة حيث قُتل منها زهاء سبعين، هال هذا الأمر عمر بن الخطّاب و كان مستشار أبي بكر و ساعده الأيمن و ذهب إلى أبي بكر و قال له: إنّ القتل قد كثر و استحرّ بقرّاء القرآن يوم اليمامة و انّي أخشي أن يستحرّ القتل بالقرّاء فيذهب من القرآن الكثير و انّي أري أن تأمر بجمع القرآن، فأمر أبوبكر زيد بن ثابت فجمعه من الرّقاع و العسب و صدور الرجال ".و القضية واحدة لاتختلف سوي في قدسية القرآن و أهمية جمعه و جوهريته مع ثانوية جمع الشعر و عدم التزمّت في التنقيب عنه و الجري وراء مظانّه و مهما دوّناه و سجّلناه فلن نأتي على نهايته. (ابن اثير، ١٣٠١هـ: ٢ / ٤١، الطبري، بدون تاريخ: ٢٨٤، البلاذري، ١٩٦٦م: ٢٣١ إلى ٢٣٤)

لذلك لاحظ ابن سلّام قيام بعض القبائل التي قلّ نصيبها فيما بقي من شعر بالوضع على ألسنة شعرائهم، يقول: " فلما راجعت العرب رواية الشعر، وذكر أيامهم و مآثرها، إستقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم، وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم و أشعارهم، فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع و الأشعار، فقالوا على ألسنة شعرائهم ثمّ كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت ".(الجمحيّ ابن سلّام، ١٩٧٤ م: ٤٦ و ٤٧).

**الثانية:** الرواة و زيادتهم في الأشعار:

يقدّم لنا ابن سلّام طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلا كثيرا و تنسبانه إلى الجاهليين، طائفة كانت تحسن نظم الشعر و صوغه و تضيف ما تنظمه و تسوغه إلى الجاهليين، و مثّل لها حمّاد الراوية و خلف الأحمر، امّا حمّاد الراوية فهناك تأكيد على علمه بالشعر و بكلام العرب و كان أعلم الناس إذا نصح يعني إذا لم يزد و ينقص في الأشعار و الأخبار، فانّه

كان متّهما لانّه يقول الشعر و ينحله شعراء العرب، فينحل الشعراء قصائد ينظّمها على طرائقهم في النظم و مذاهبهم في الإبداع، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب الرجل و يدخله في شعره و يحمل ذلك عنه في الآفاق فتختلط أشعار القدماء و لا يتميّز الصحيح منها الّا عند عالم ناقد. و يدخل في هذا السياق ما يزيده أبناء الشعراء في أشعار آبائهم إذ يروي ابن سلّام عن أبي عبيده انّ داود بن متمم قدم البصرة فسألناه عن شعر أبيه متمّم، و قمنا له بحاجته، و كفيناه ضيعته، فلمّا نفد شعر أبيه، جعل يزيد في الأشعار و يضعها لنا، و إذا كلام دون كلام متمم، و إذا هو يحتذي على كلامه. لم يذكر ابن سلّام ما حملهم على ذلك، و لكنّه يكفي بذكر مثالين للرواة المتزيدين و هما داود بن متمم و حمّاد الراوية الذي كان ينحل شعر الرجل غيره و يزيد في الأشعار. و لم يقتصر دور بعض الرواة على وضع الشعر و نسبته إلى غير قائليه بل تجاوز ذلك بكثير، فهم رغم وضعهم في المرتبة الثانية بعد تزيد العشائر أشدّ خطرا على الشعر و الشعراء، حيث لم يقتصر دورهم على الوضع بل تجاوزه إلى التزييف و الخلط، من ذلك مثلا ما كان يفعله حمّاد الراوية، الذي " كان ينحل شعر الرجل غيره، و ينحله شعر غيره، و يزيد في الأشعار ". وقد ذكر ابن سلّام العديد من الروايات و الوقائع التي تدل على تزيد الرواة فيه، وتزييفه وخلطه (طه احمد ابراهيم،١٤٠٨ م: ٧٧). وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الإحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي، ولكنّها كانت تحمل كلّ غثاء منه وكلّ زيف، وهم رواة الأخبار والسير والقصص، مثل ابن إسحاق، فلم يقبل النقّاد شيئا ممّا يرويه أشباه ابن إسحاق راوي السيرة النبوية، إذ كان يصنع الأشعار و يدخلها في سيرته دون تحرّز أو تحفّظ، منطقا بالشعر العربي ما لم ينطقوه من قوم عاد و ثمود و العماليق و طسم، و رفض ابن سلّام و الأصمعي حمّاد إلّا أن يأتيهم من مصادر وثيقة، و كذلك لم يقبلوا شيئا ممّا يرويه ابن إسحاق لا عن الأمم البائدة فحسب، بل عن عرب الجاهلية أنفسهم (الجمحي، ابن سلّام، ١٩٧٤ م: ٤٦ و ٤٧).

**الثالثة:** إستقلال بعض العشائر شعر شعرائهم:

الإنتحال ظاهرة أدبية تابعة لدواعي قبلية و أسباب عشائرية، و ذلك عندما تراجع القبائل الشعر و الأيام و المآثر فتستقلّ شعر شعرائها فتدفعها العصبية إلى الزيادة في الأشعار، فتحمل شعرائها ما ليس لهم من الأشعار، و تنسب اليهم ما لم يقولوه، لا يدفعها لذلك الّا العصبيه القبلية، حيث لا ترضي القبيلة الّا أن تلحق من له الوقائع والأشعار، ولا

يقف الأمر عند ذلك بل انّ الرواة أنفسهم يزيدون في هذا الشعر المنحول و ينقلونه، إمّا العصبية إذا كانوا من رواة القبيلة، و إمّا إظهارا للمعرفة و الإحاطة، و إمّا طلبا للجائزة و النوال، إذن العصبية سبب خطير و هامّ من أسباب الإنتحال كما انّ الرواية عرضة للإنتحال، يقول ابن سلّام: " فلمّا راجعت العرب رواية الشعر و ذكر أيامها و مآثرها استقلّ بعض القبائل شعر شعرائهم و ما ذهب من ذكر وقائعهم و كان قوم قلّت وقائعهم و أشعارهم و أرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع و الاشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار التي قيلت ". (الجمحيّ ابن سلّام، ١٩٧٤ م: ٤٦ و ٤٧)

**الرابعة:** إستلحاق بعض القبائل لمشهوري الشعراء أو ادّعاء بعض الشعراء الإنتساب لبعض القبائل:

يعتبر ابن سلّام إستلحاق بعض القبائل اللا معروفة لبعض مشهوري الشعراء كظاهرة هامّة تعرّض الشعر للإنتحال و الوضع، و لقد فطن لتلك فيقول: " فأخو الشماخ يعزي كعب بن زهير إلى مزينة و كان أبو سلمي و أهل بيته في بني عبدالله بن غطفان، فبهم يعرفون، و إليهم ينسبون و كان أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة، لاحي النابغة فنماه إلى قضاعة، و كان رهط الزبرقان بن بدر يخلجون إلى بني كعب ابن يشكر إلى ذي المجاسد، عامر بن جشم بن كعب و يقول: و لقد أخبرني بعض أهل العلم من غطفان انّهم من بني عبدالله بن غطفان و انّ اعتزاءه إلى مزينة كقول هؤلاء، و امّا العامة فهو عندهم مزني". (المصدر نفسه: ١٠٤ و ١١٠)

**الخامسة:** ظاهرة اللين:

تعدُّ ظاهرة اللين عند ابن سلام مقياسا نقديا هامّا، ممّا جعل ابن سلّام يشكك في بعض الأشعار بسبب اللين الذي يعتبر سببا هامّا في الإنتحال، و أشار أنّ للبيئة أثرا كبيرا في الشعر وأنّ الشعر البدوي قوي جدّا و أنّ الشّعر الحاضرة لين ضعيف ممّا يجعل الخلط و الإنتحال يكثر فيه، و على هذا الأساس ينظر الناقد إلى شعر الحاضرة بحذر شديد، فلين الشعر في اعتقاد ابن سلّام مرتبطة بحياة الحاضرة ممّا يجعل أن يحمل على الشاعر ما ليس له من الشعر، وعلى هذا الأساس ينظر إلى أشعار عدي بن زيد بشئ ء من الحذر، لأنّه وضع عليه أشعار كثيرة، فشعره يشكل على النقّاد و العلماء، حتى اضطرب فيه خلف الأحمر و خلّط فيه

المفضّل فأكثر، لأنّه من أراد أن ينتحل سهل عليه أن يأتي بمثله لأنّ كهذا الشعر اللين لا يتمتّع بمتانة يصعب الإنتحال معها، و بالإضافة إلى اللين فإنّ الشهرة و قلّة الشعر مدعاتان للإنتحال. يقول ابن سلّام: " ممّا يدلّ على ذهاب الشعر و سقوطه قلّة ما بقي بأيدي الرواة المصحّحين لطرفة و عبيد، فلمّا قلّ كلاهما حمل عليهما حمل كثير ". (المصدر نفسه: ٢٦) و قد تطرّق العلماء القرن الثاني إلى هذه المشكلة. (البغدادي، ١٣٩١: ٣٧٧/١ . أبوالفرج الإصفهاني، ١٩٥٨: ٥ /٤٧. المرزباني،١٣٨٥: ٣٧. الأصمعي١٩٥٣: ٢٢) و لكن ابن سلّام استطاع أن يعرضها عرضا طيبا و يحدّد أسبابها بل و يقدّم العلاج الذي يراه مفيدا و مجديا. هذه الدواعي التي عرضها ابن سلاّم وجيهة إلى حد كبير، نتبيّن من خلالها الدقة النقدية في العرض والشرح المدعم بالحجة والبرهان الذي لا يرقى إليه الشك، لكن بالرغم من تحرّي ابن سلّام و تحرّزه و اجتهاده في تخليص الشعر الصحيح فقد انطلي عليه بعض زيف النقلة مثل ما نسب إلى يعصر أو سعد و مالك ابني زيد مناة. (محمد زغلول سعد،٢٠٠٠م: ١٠٣)

وإزاء هذه المشكلة يبين ابن سلّام انّ ثمّة حكمين تقبل حكومتهما في صحّة الشعر ووضعه، وهما أهل البادية و عنهم ينبغي أن يؤخذ الشعر، و أهل العلم و الراوية الصحيحة. إعتبر ابن سلّام أساس قبول الشعر في تلقّيه عن أهل العلم به و الرواية الصحيحة، و يقصد بأهل الرواية الصحيحة من عرف عنهم ذلك و من اعتمد عليهم و نقل عنهم في كتابه الطبقات و لعلّ أشهر من أشاد بتوثيقهم الأصمعي و أبو عمرو بن العلاء و المفضّل الضبّي، و هؤلاء معروفون بالتحرّي و التدقيق في النصوص حيث كانوا يخرجون إلى البرية لينقلوا صحيح الشعر. (مرزباني، ١٩٦١ م: ٤٣). لانّ الشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم و قد يختلف العلماء في بعض الشعر كما اختلفت بعض سائر الأشياء، امّا ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخرج منه، يقول ابن سلّام عن الشعر الموضوع: " و قد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، و لم يعرضوه على العلماء ". (الجمحي ّ ابن سلّام ١٩٧٤ م: ٤ و ٦) لقد ألح ابن سلاّم على ضرورة تخليص الشعر ممّا علق به من زيف وكذب، واتّسمت معالجته للظاهرة بمنهج علمي فيه كثير من الدقّة والتفصيل والتحليل والإستدلال، على عكس معالجات معاصريه أو سابقيه التي لم تتجاوزحدود البحث عندهم العبارة المركزة والإشارة الخاطفة.

وهنا تجدر الإشارة إلى انّ ابن سلّام قد وضع قاعدة نقدية هامّة من قواعد الدرس النقدي التطبيقي، حيث لفت الأنظار إلى ضرورة تحقيق النص قبل دراسته، و التأكد من صحة نسبته لقائله، وصحّة روايته، وهو يرى انّ هذا الأمر رغم صعوبته الّا انّه لا يخفي على أهل العلم: " وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ما وضعوا، ولا ما وضع المولّدون، وانّما عضّل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء، أو الرجل ليس من ولدهم، فيشكل ذلك بعض الاشكال ". (المصدر نفسه: ٤٦ و ٤٧)

يحتلّ العلم بصنعة الشعر و تمييز صحيحه من زائفه و جيده من رديئه جاها كبيرا من إهتمام ابن سلّام و مرجع ذلك إلى حرصه على تنقية أشعار العرب ممّا لحقها من شعر موضوع و إنزال الشعراء منازلهم التي يستحقّونها حقا. ويؤكد انّ ثقافة العالم بالشعر أو الناقد ضرب خاص من الثقافة عصي تلمسه، دقيق تمثله، ولا يدري ماهيته ومستوياته الّا أهله. و من ثمّ يقول ابن سلّام: " و للشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم، كسائر أصناف العلم، و الصناعات منها تثقفه العين، و منها ما تثقفه الأذن، و منها ما يثقفه اللسان، و من ذلك اللؤلؤ والياقوت، لا تعرفه بصفة و لا وزن دون المعاينة ممّن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم، لا تعرف جودتهما بلون و لا مسّ و لا طراز و لا وسم و لا صفة، و يعرفها الناقد عند المعاينة، فيعرف بهرجها، و زائفها و ستوقها و مفرغها ". (المصدر نفسه: ٤ و ٦).

يعتقد ابن سلّام أنّ لثقافة الناقد وزن كبير، و يرى انّها الحكم المؤهّل النقدي الوحيد في شؤون الأشعار، و انّ أمر الأحكام الجمالية لا ينبغي إسناده إلى غير أهله، إبتغاء أن تكون الأحكام صحيحة، و ينزل الشعراء منازلهم التي هم عليها حقيقة. و عنده انّ شأن العالم كشأن الصراف الخبير بالنقود، في قيمة أحكامها و وجوب اعتمادها و الأخذ بها. و يدلّل ابن سلّام على صواب ذلك بهذه الرواية: " وقال قائل لخلف: إذا سمعتُ أنا بالشعر أستحسنه فما أبالي ما قلتَ أنت فيه و أصحابك. قال: إذا أخذت درهما فاستحسنتَه، فقال لك الصرّاف: إنّه ردي، فهل ينفعك إستحسانك إياه ". (المصدر نفسه: ٤ و ٦).

ومهمّة الناقد الدقيق أن يخلص من ذلك الشعر المدخول من الصحيح، ووضع ابن سلّام بين يدي هذا الناقد المؤثّرات التي ينبغي أن تتواجد فيه و بدونها لا يمكن أن يحلّل الأشعار ويدقّقها، وتنبّه إلى كثير من الشروط التي يجب أن تتوافر في الناقد و في النقد:

**أ – الدربة والممارسة:** كان ابن سلاّم من أوائل من نصّ على استقلال النقد الأدبي، إذ أكّد أنّ النظر في الشعر مجال تخصصي قائم الذات؛ يقول: " للشعر صناعة و ثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم و الصناعات منها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفها اللسان و من ذلك اللؤلؤ والياقوت لا يعرف بصفة أو وزن دون المعاينة ممّن يبصره و من ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لا تعرف جودتهما بلون و لا مسّ و لا حسّ و لا صفة و يعرفها الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها و زائفها....". (المصدر نفسه: ١٧) فهو يرفض مبدأ الذوق من غير الإستناد إلى الثقافة الأدبية والقدرة الفنية في الحكم على الشعر. فالشعر ثقافة وصناعة، لا يستطيع معرفته والحكم عليه إلا أهله الذين رسخت درايتهم به؛ وذلك ما يُعين على غربلة الأشعار والتمييز بين جيدها ورديئها وتنقيحها ممّا لحقها من شعر موضوع. ممّا يمكن القول في هذا السياق انّ ملكة ابن سلاّم الأدبية في تحليل الشعر و تذوّقه لا تكاد تظهر فيما كتب، ملكته الأدبية أضعف بكثير من ملكته العلمية و كان لنا أن ننتظر من ابن سلاّم تحليلا للشعر فسيحا عميقا يلائم انفساح النقد في الميادين الأخرى و لكنّنا لا نجده يتقدّم في تذوق الأدب خطوة عن الذين عاصروه أو سبقوه، بل لقد نرى له أحيانا كلاما عامّا لا يحدّد ذوقا خاصّا و لا يشعر بتفهّم النصوص على النحو المقنع و قلّما نظفر بشئ دقيق حين نتتبع آراء ابن سلاّم فيما يتصل بالشعر. (طه أحمد إبراهيم،١٤٠٨: ٨٣و٨٤) ربّما يعني طه أحمد إبراهيم بملكة ابن سلاّم العلمية طريقة وضعه الشعراء في طبقات عشر وجعل كلّ طبقة أربعة شعراء وطريقة عباراته الدقيقة وعرضه للشعراء وتقصّيه للمعنى الذي يريده حتى يصل واضحا إلى القارئ مع سلامة وجزالة. امّا عن ضعف ملكته الأدبية فلعلّ طه أحمد إبراهيم قصد بها إلى انّ ابن سلاّم لم يتدخّل بذوقه الخاصّ في اختيار الأشعار، ولكنّنا قد رأيناه قد تحلّل من المبدأ الذي فرضه على نفسه في ترتيب الشعراء الطبقات فجعل طبقة لشعراء القري وأخرى لأصحاب المراثي وثالثة لشعراء اليهود ورابعة للرجاز وخامسة للمشبّبين، وعلى أساس التشابه الفني لا الشكلي وقد رأينا ابن سلاّم يوازن بين شاعر وشاعر ويفضّل أحدهما على الآخر، ويوازن بين الأبيات المنفردة والقصائد المطوّلة، ويلاحظ الفروق الدقيقة بين النسيب والتغزّل ويفرّق بين جميل وكثير. (منير سلطان، ١٩٨٦م: ٢٨)

ب- **تحقيق النصوص:** أدرك ابن سلّام أيضا أهمية تحقيق صحّة النصوص وصحّة نسبتها و هذه أولى اوليات النقد و أساسه المتين، قال: " فلمّا راجعت العرب رواية الشعر وذكرياتها و مآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم و ما ذهب من ذكر وقائعهم وأشعارهم و أرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع و الأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ثم كانت الرواة فزادوا في الأشعار و ليس يشكل على أهل العلم زيادة ذلك و لا ما وضع المولّدون و انّما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الإشكال ". (المصدر نفسه: ٢٢).

ج - **تفسير الظواهر الطبيعية:** يُعدّ ابن سلاّم من أوائل النقّاد العرب الذين أدركوا أثر البيئة في الشعر والشعراء، إذ عقد فصلا خاصا بشعراء القرى العربية حين أدرك بنظره الثاقب الفرق بين شعر البادية وشعر الحاضرة، وما يُحدثه التحضّر من تغيّر في الملكة الفنية وهو في هذا إنّما يريد أن يقرّر أن البيئات ليست كلّها واحدة في إنتاج الشعر، فلكلّ بيئة خصائصها ومميّزاتها التي تلوّن نفسية ساكنيها؛ فشعر الحواضر يُعبّر عن روح الحضارة الجديدة ويعكس نعومتها وذلك الترف والرخاء الذي كانت تنعم به، بينما نجد شعر البادية يصوّر الحياة البدوية وقساوتها وخشونتها كقوله في صدد الحديث عن شعراء القري تعليلا لقلّة الشعر في الطائف ومكة وعمان وكثرته بالمدينة: " وبالطائف شعراء وليس بكثير وانّما كان يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون و يغار عليهم، والذي قلّل شعر قريش أنّه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا وذلك قلّل شعر عمان". (المصدر نفسه: ١٧).

ويقول في تفسيره للين شعر عدي بن زيد و وضع الشعر عليه: " كان يسكن الحيرة و مراكز الريف، فلان لسانه و سهل منطقه فحمّل عليه شئ كثير، و تخليصه شديد ". (المصدر نفسه: ١٧) يتفقّه في هذا الموضوع إبن رشيق حيث يقول: " و كان الكلام كلّه منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها و طيب أعراقها و ذكر أيامها الصالحة و أوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد وسمحائها الأجواد لتهزّ أنفسها إلى الكرم و تدلّ أبنائها على حسن الشيم فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلمّا تمّ له وزنه سمّوه شعرا لانّهم شعروا به، أي: فطنوا". (ابن رشيق، ١٩٦٨م: ١ /٢٠) إنتبه الجاحظ فيما بعد إلى هذه الفكرة لكنّه ردّ مذهب

ابن سلّام في هذا الشأن و ينفي إرتباط الشعر بعوامل تقع خارج نفس الإنسان و جبلّته ككثرة الحروب و مغالبة الأعداء أو خصوبة المكان و طيب الغذاء أو السكني و الإستقرار، بل يرى انّ الشعر حظّ يقسمه الله لمن شاء من عباده. (الجاحظ، ١٩٦٩م: ٤ /٣٨٠ - ٣٨١)

والواقع انّه إذا كان ابن سلّام مصيبا في نظرته إلى إنتحال الشعر، فإنّه أقلّ إصابة فيما عدا ذلك، فتفسيره لندرة شعر بعض القري مردود، لأنّ الشعر ليس كلّه في الحرب و لا هم قاصر عليها، بل انّ فيه مصادرة على المطلوب، فليس بصحيح انّ الشعر كان نادرا في مكة مثلا خصوصا بعد الإسلام. و لين شعر عدي بن زيد لا يكفي لتعليله قوله: " انّه سكن الحيرة و مراكز الريف " و الّا حرنا في تحليل " نحت الفرزدق من صخر " و " اغتراف جرير من بحر ". و امّا عن تفضيله الكثرة على الجودة و تعدّد الأغراض الشعرية على التوفّر على الفنّ الذي تحزّبنا اليه ملابسات حياتنا، ففي ظنّنا انّه من الواضح انّ الكمّ ليس مقياسا صحيحا لقيم الشعراء. (مندور محمّد، ١٩٩٦م: ٢١)

د - **أسس المفاضلة:** لم يذكر ابن سلاّم في كتابه الأسس الفنية والجمالية التي اتّخذها أساسا لإلحاق الشاعر بالفحول ووضعه في طبقة معينة؛ وإذا حاولنا تتبع بعض الإشارات القليلة والقصيرة المنبثة عبر الكتاب أمكننا استنباط جملة من المعايير النقدية التي اعتُمدت في تحديد الطبقة وشعرائها، هذه المعايير هي كثرة شعر الشاعر، تعدّد أغراض الشعر و الجودة. أما مقياس الكثرة واعتماد ابن سلّام عليه في المفاضلة بين الشعراء فنراه جلياً في غير موضع من كتابه، من ذلك ـ مثلاً ـ ما نراه في تبرير تأخر منزلة طَرَفَة بن العبد وعَبيد بن الأبرص وعَلْقَمَة بن عَبَدَة وعَدِى بن زيد إلى الطبقة الرابعة.(الجمحي، ابن سلام: ١٣٧/١) وكذلك مقياس تعدّد الأغراض الذى يتضح أثره بصورة جلية في مواضع عديدة من طبقاته، من ذلك ـ مثلاً ـ ما نراه في تبرير وضع كُثَيِّر عزة في الطبقة الثانية من فحول الإسلام، وجميل بن مَعْمَر في الطبقة السادسة؛ مع أن جميلاً مُقَدّمٌ في التشبيب على كُثَيِّر وعلى أصحاب النسيب جميعاً (المصدر السابق: ٥٤٥/٢)، ولا يخفى على الدارس أنّ الكثرة وتعدّد الأغراض لايمكن بحال الإعتماد عليهما كمقياسين نقديين لدرس الشعر وتقويمه، وأنّ ابن سلّام نفسه كان قد أشار ـ في مقدمته ـ إلى قضية الإنتحال والوضع في الشعر، وأن الرواة لعبوا دوراً خطيراً في الإقلال من شعر شاعر،

والإكثار من شعر غيره، واهتمام ابن سلاّم بالكمّ ليس بمعزل عن الجودة، من هنا يتضح أن الشرط الأول عنده هو جودة الشعر مضافا إليها كثرته؛ فالشاعر المُكثر المُجيد عنده مقدّم على الشاعر المُقلّ المُجيد، والمُكثر المُجيد المُتعدّد الأغراض مُقدّم على المُكثر المُجيد الذى لم يَقُل إلاّ في غرض أو اثنين، أما كثرة الشعر وتنوّع أغراضه فإنهما لا يجعلان الموصوف بهما مُقدّماً إذا كان شعره رديئاً لذلك أرى أن أهمية هذين المقياسين تنبع من ارتباطهما بمقياس الجودة، إنّة لا يدخل المُهلهل في طبقاته على الرغم من انّه سبق الشعراء الفحول إلى تقصيد القصائد، لأنّ اضطراب شعره و اختلافه كان سببا لإهماله، يقول عنه: " و انّما سُمّي مُهلهلا لهلهلة شعره كهلهلة الثوب، و هو اضطرابه و اختلافه ".(الجمحيّ ابن سلاّم ١٩٧٤ م: ٣٩). و جعل ابن سلاّم امرؤالقيس اوّل الطبقة الأولى و بين الجيد من شعره، و على الرغم من انّ الناس اتّفقوا على تقديمه إلّا انّ ابن سلاّم يذكر تعليل هذا التقديم، فيجعل الجودة هي السبب في تقديمه، فيقول عنه: " سبق العرب إلى أشياء ابتدعها و استحسنتها العرب " (المصدر نفسه: ٥٥) و يقول عن زهير: " أجمعهم لكثير من المعني في قليل من المنطق " (المصدر نفسه: ٦٤).

من جميع ما ذكرناه من الشواهد يظهر إهتمام ابن سلاّم بالجودة الشعرية و جعلها المقياس الأوّل لتقديم الشعراء و تأخيرهم، سواء أ كانت الجودة في الشعر عامّة، أو في فنّ من الفنون، أو في الأبيات المنفردة، و من ثمّ نراه يقدّم مقياس الجودة على جميع المقاييس، إذ جعل له أثرا واضحا في التفضيل أو التقديم و التأخير من الطبقات.

### ٣- النتيجة:

بعد هذه القراءة المتواضعة لمؤلّف "الطبقات" التي ربّما كانت بداية البدايات في قراءات نقدية أخرى، يمكن الخروج بمجموعة من الملاحظات والنتائج:

لقد وضع ابن سلاّم بتحليله التوثيقي لقضية الإنتحال حدّا للتشكيك في الشعر العربي، وحقّق بذلك تحليلات هامّة في هذه الظاهرة، فتمثّلت هذه التحليلات في إخضاع الشعر العربي لموازين هامّة نقدية أكثر منها عفوية تاريخية.

١- انّه اوّل من نظم البحث في الأفكار التي سابقته و عاصرته عامّة و قضّة الإنتحال من

الرؤية التاريخية خاصّة، و عرف كيف يعرضها و كيف يبرهن عليها و يستنبط منها حقائق أدبية في كتابه طبقات الشعراء.

٢- شارك معاصريه في كثير من الأفكار و لكنّه حدّدها و بين مسالكها و أضاف اليها و صبغها بصبغة البحث العلمي و سلكها في كتاب خاصّ هو خلاصة ما قيل إلى عهده في أشعار الجاهلية و الإسلام، زاد على ما قال معاصروه في النقد الفني و في النّظرات و في الأدب و أودع كلّ المعارف في النقد كتابا لعلّه أسبق الكتب في ذلك، أودعها على طريقة العلماء و في عرف منطقي قويم.

٣- يقدّم لتلاميذه النقّاد مؤثّرات ثابتة يزيد بها معالم قضية الشعر المصنوع، و كأنه يريد أن يقول انّ هذه مبادئ ثابتة يجب على الخيال الّا يجنح بعدهم فيدخل في الكذب و الإدّعاء و هو لا يكتفي بعرض القضية و اقتراح علاجها و تقديم معلومات تستخدم في الكشف عنها فحسب، بل ينتقل إلى خطوة أخرى عملية في المعالجة، فيقدّم الشعراء مرتبين في طبقات، و يرفق بهم شعرهم الصحيح المقبول عند الشعراء الرواة و العلماء النقاد.

٤- إن كتاب ابن سلاّم على فضله لا يخلو من بعض الهفوات والمآخذ، شأنه في ذلك شأن كلّ كتاب يُمثّل المحاولة الأولى الجادة في كلّ علم وفنّ. وسأحاول التطرّق لبعض منها بشكل مركز ودقيق:

- أغفل ابن سلاّم في طبقاته ذكر بعض كبار الشعراء من أمثال عمر بن أبي ربيعة، والكميت بن زيد الأسدي، والطرماح بن الحكيم، وبشّار بن برد، ومروان بن أبى حفصة، وأبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأبي العتاهية وغيرهم ممّن تبلورت أقوال العلماء فيهم، لعلّه كان يخشي ممّا قد يناله من أولئك الشعراء من الهجاء المقذع إذا عرض لشعرهم بالنقد والتحليل و الإشارة إلى موارد الضعف فيه، و لعلّه طبقة العلماء و معاصري ابن سلاّم و السابقين له يعتبرون انّ العصر الذهبي للّغة والشعر هو الجاهلية وصدر الإسلام مع العصر الأموي، و شعراؤهم قادة الشعر و قولهم هو المنبع والمصدر والشعراء بعدهم عيال عليهم.

- إن اعتبار الكمّ بوصفه مقياسا نقديا في إنزال الشعراء منازلهم عند ابن سلاّم لا يُمكن التسليم به في جميع الحالات، فهو قد التزمه حينا وتركه حينا آخر، ودليل ذلك أنه وضع كعب بن زُهَيْر في الطبقة الثانية من الجاهليين وليس له قصائد مشهورة اللهمّ إلا "بانت سعاد"، كما أنّه وضع لَبِيد بن رَبيعة في الثالثة وطَرَفة بن العَبْد في الرابعة من الجاهليين مع أنّ لهما قصائد جيادا كثيرة.
- انّ ملكة ابن سلّام الأدبية في تحليل الشعر و تذوّقه لا تكاد تظهر فيما كتب، ملكته الأدبية أضعف بكثير من ملكته العلمية و كان لنا أن ننتظر من ابن سلّام تحليلا للشعر فسيحا عميقا يلائم انفساح النقد في الميادين الأخرى و لكنّنا لا نجده يتقدّم في تذوق الأدب خطوة عن الذين عاصروه أو سبقوه، بل لقد نرى له أحيانا كلاما عامّا لا يحدّد ذوقا خاصّا و لا يشعر بتفهّم النصوص على النحو المقنع و قلّما نظفر بشئ دقيق حين نتتبع آراء ابن سلّام فيما يتّصل بالشعر.

## قائمة المصادر والمراجع


١. ابن اثير، الكامل، ط الأزهرية القاهرة ١٣٠١هـ.
٢. ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، طبعة القاهرة ١٢٩٦
٣. ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، مطبعة مجلس المعارف النظامية، ١٣٢٩-١٣٣١ هند -حيدرآباد-دكن
٤. ابن رشيق، العمدة، ط التجارية، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، القاهرة،١٩٦٨م
٥. ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ط٣، تحقيق محمود محمّد شاكر، دار المعارف المصرية، ١٩٧٧م
٦. احسان عباس، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، الطبعة الرابعة، دارالثقافة بيروت لبنان.
٧. الأسد، ناصرالدين، مصادر الشعر الجاهلي و قيمتها التاريخية، الطبعة السابعة دارالمعارف بمصر١٩٨٨
٨. الإصفهاني، ابوالفرج، الأغاني، طبعة دارالثقافة بيروت ١٩٥٨.
٩. الأصمعي، فحولة الشعراء، المطبعة المنيرة بالقاهرة ١٩٥٣م.
١٠. بدوي احمد طبانة، دراسات في نقد الأدب العربي من الجاهلية إلى القرن الثالث، الطبعة الثالثة، طبعة الرسالة، القاهرة ١٩٦٠م

١١. البغدادي الخطيب، تاريخ بغداد، طبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣١ هـ
١٢. البلاذري، فتوح البلدان، ط ليدن ١٨٦٦م.
١٣. الجاحظ، الحيوان، ط ٣ تحقيق عبدالسلام هارون، دار احياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٩م
١٤. الجمحي، محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر،ط المدني ١٩٧٤م.
١٥. الجمحي، محمد بن سلام، طبقات الشعراء، ليدن بريل ١٩١٣م.
١٦. جورجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، دارالجيل، بيروت ١٩٨٢
١٧. حموي، ياقوت، معجم الأدباء، تحقيق احمد فريد رفاعي، دارالمأمون، ١٩٣٦ -١٣٥٥
١٨. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، طبعة السعادة القاهرة،١٩٣١ هـ.
١٩. الزركلي، خيرالدين، الأعلام، الطبعة السابعة عشرة، دارالعلم للملايين، بيروت ٢٠٠٧م.
٢٠. السيوطي، المزهر في علوم اللغة و أنواعها، مطبعة السعادة، مصر ١٢٨٥هـ
٢١. الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الوافي بالوفيات، انتشارات جهان، تهران، ١٣٨١ق ١٩٦٢م
٢٢. الطبري، تاريخ الأمم و الملوك، طبعة الحسينية القاهرة، بدون تاريخ.
٢٣. طه احمد ابراهيم، تاريخ النقد الادبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، الطبعة الأولى، دارالقلم بيروت ١٤٠٨م.
٢٤. العاكوب، عيسى على، التفكير النقدي عند العرب، دار الفكر، دمشق سورية، ١٤٢١ هـ
٢٥. الفاخوري، حنا، الجامع في تاريخ الادب العربي الادب القديم، دارالجيل، بيروت لبنان.
٢٦. محمد بن اسحاق نديم، الفهرست، ترجمه رضا تجدد، چاپ دوم، چاپخانه بانك بازرگاني ايران.
٢٧. محمد زغلول سعد، تاريخ النقد الأدبي و البلاغة عند العرب حتى القرن الرابع الهجري، منشأة المعارف اسكندرية ٢٠٠٠م.
٢٨. محمود محمد شاكر، قضية الشعر الجاهلي عند ابن سلام، رقم الطبعة ١، مطبعة المدني ١٩٩٧م
٢٩. المرزباني، الموشح، دار الفكر العربي، قاهرة ١٩٦١م.
٣٠. مندور محمّد، النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر للطباعة و النشر، ١٩٩٦ م.
٣١. منير سلطان، ابن سلام و طبقات الشعراء، الطبعة الثانية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٨٦م.
٣٢. منيف موسى، في الشعر و النقد، الطبعة الأولى، دارالفكر اللبناني، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م